الآثار القديمة بالحِجْر وما جاورها

الدكتور وانا م - ن - إحسان إلهي

منذ عصور ماقبل التاريخ كانت الحجر مهداً للحضارة ومركزاً للتجارة ، ولم يبق لنا منها الآن إلاّ نبذٌ من ذكرها في الكتب القديمة وبعضُ آثارها الخالدة المنحوتة في الصخور ما بين وادي القُرى وبخاصّة في المنطقة الواقعة بين العُلا وبئر الغنم . وهي الّتي تُعرف عندنا الآن باسم « مدائن صالح » .

ووصفها جماعةٌ من قدماء اليونان . ومنهم بليني‌وس (المتوفى في حدود سنة ٨٠ م) بقوله : إنّ ثموداً (Tamudaei) كانت لهم مساكن في دومة الجندل (Domatha) والحجر (Haegra) ؛ وإن الحجر مدينة تكثر فيها أشجار النخيل وهي مشهورةٌ عندنا منذ قرون بأسواق الذهب والفضّة واللبان والعود والمُرّ والبخور ، ويمرّ بها طريق القوافل إلى البلاد العربية السعيدة(Arabia Felix) (١) .

ومن اليونانيين الّذين ذكروا ثموداً والحجر أيضاً بَطلَيمُوس (المتوفىّ سنة ١٥٧ م) فقد سمّاهم في كتابه العظيم بـ Thamuditae أحياناً وبـ Thamudeni أحياناً أخرى ، وعيّن مساكنهم في تلك المنطقة ذاتها . وقال : إنّ الحجر (Σγρα) بلدة صغيرة قديمة مشهورة بالتجارة (٢) .

---

(١) بليني‌وس: Natural History ، ٢ : ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٢) Geographia ، ٦/ ٧ : ٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأمّا دُومة الجنـدل فهي واحة كبيرة معروفة عنـد الآشوريين باسم Adamu (١) . وقد تعرّف المستشرقون على ثمود ومساكنهم من الكتابات التي وجـدوها . فقد وجدوا ذلك الاسم (أي : Tamudi) بين النصوص الآشورية القديمة في نص" من نصوص سرجون الثاني بمناسبة ذكر المعركة العظيمة التي وقعت بين الآشوريين و بين الثموديين في سنة ٧١٥ ق .م وانتصر فيها الآشوريون عليهم (٢) . ويظهر من كل" ذلك أن" ثموداً كانوا يسكنون منذ عدّة قرون قبل الميلاد في شمال غربي" بلاد العرب أي في المنطقة التي عيّنتها المصادر العربية القديمة . وكانت لهم حصون بأماكن شتى مثل الحجروالبتْراءوبُصرى. وكانت فيها مخازن للأسلحة والأموال (٣) وروي أن أهل الحجر كانوا يعترضون الطريق في بعض الأحيان ويقومون بأعمال القرصنة في خليج العقبة . ففي سنة ٣١٢ ق . م أرسل أنتيغونوس (Antigonus) اليوناني سريتين من جنوده لمحاربتهم ولكن دون جدوى (٤) .

انـّا نجد صخور الحجر وخاصة صخور جبل الأثالث التي تقع على خط العرض ٢٦° و٨٥َ شمالا وعلى خط الطول ٣٠° شرقاً (٥) . وقد تكوّنت هـذه الصخور من الرمال المتراكمة التي مكثت تحت ثقل ماء البحر لمدة طالت إلى ملايين السنين ثم تحجرت ،ويسميها علماء الجيولوجيا بـ lower Paleozoic clastic rocks وحينما كانت تلك الرمال مغمورة تحت الماء غطتها طبقة لطيفة من مادة رقيقة من

---

(١) موزل : Hegaz ٣١١

(٢) رولنسن : Cuneiform Inscriptions ج ا لوحة ٣٦

(٣) دائرة المعارف (البريطانية) ،بذيل مادة Nabataeans ؛ دائرة المعارف الاسلامية (ليدن) ، بذيل مادة Nabataean

(٤) دائرة المعارف (البريطانية) ، بذيل مادة Antigonus

(٥) سترينفرد (خريطة العرب) ١٩٤٠ م

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مركبات الحديد والمغنيسيوم (magnesium) فأصبحت وكأنهـــا بعض الكائنات البحرية الثابتة كالإسفنج والمرجان . وقد تحجرت هذه بدورها أيضاً . وحينما كانت الشمس تشرق على هذه الصخور الوردية تنعكس أشعتها بألوان زاهية فكأنها عروس زينت بالأهداب الذهبية الأفقية . وقد زادتها بيئتها الموحشة جمالا وحسنا وروعة . فلا إنس فيها ولا جان يشوه جمالها ، ولا صوت ولا صفير يقطع نظر المتأمل في سحرها الخلاب .

وتبرز من بين هذه الصخور في الجانب الغربي من المنطقة واجهـات البيوت الشاهقة المنحوتة في صميم الصخر حيث ترتفع هذه البيوت من الارض بعشرة أقدام أي ثلاثة أمتـار . وأمّا « قصر البنت » كما يسمى حتى الآن ، فهـو مرتفع من الارض بمائة قدم . وعلى كلّ من جانبي المدخل بلاستران pilasters وهمـــا عمودان ناتئان من الجدار ويعرفهما علماء فن الهندسة المعمارية باسم double templum in antis (١)

وانّ لكلّ عمود قاعدة (base) وتاجاً مجنّحاً (winged capital) كما يوجد في سائر الأعمدة المنحوتة بالحجر . وطول العمود بالأكثر عشرون قدماً . وواجهات البيوت كلها مُحلاّة بالقوالب (mouldings) . وانّ القوالب قد نُفّذت بغايـة الدقّة والمهارة . فما أروع العبقرية التي كانت وراء ذلك الإزميل الذي نحت هذا البناء من صخرةٍ واحدة بخطوطه الطويلة ـ الأفقية أو العمودية ـ بكلّ عناية وإتقان ، لم ينحرف قط ولم يخطىء وذلك لايمكن الاّ باستخدام الآلات مثل الفادن (plumb line) والشّاقول(*) (spirit level)

(١) لكلّ المصطلحات المعمارية المستعملة في هذا المقال راجع دائرة المعارف البريطانية بذيل مادة Architecture ودائرة المعارف الأميركانية بذيل مادة Architecture

(*) جرت العادة على تسمية spirit level بميزان التسوية ، أما الشاقول فهو كالفادن خيط في نهايته ثقل. (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والبركار (compass)، الأمر الذي يدلّ على أنّ هؤلاء القوم قد وصلوا إلى مُستوى رفيعٍ من الحضارة والفنّ والنحت .

والجدير بالذكر أنّ هذه المباني يشبه بعضها بعضاً في البناء والهندسة إلى حدّ كبير . وطرازها الطراز الدوري القديم (Early Doric Order) الذى لايوجد في العالم إلاّ في القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد . والمعروف انّ الطراز الدوري أقدم وأبسط الطرز المعمارية اليونانية القديمة ، ولايوجد فيه شيء من Echinus أو من Abacus كما لم نجد شيئاً منها في أعمدة الواجهات المنحوتة بالحجر . فنعتقد أنها نحتت في القرن الثامن قبل الميلاد على الأقل .

وإننا لمّا دنونا من بيتٍ من هذه البيوت وقفنا حائرين في روعة البناء وفخامته ، وأعجبنا بدقّة النحت وجماله . وخُيّل إلينا أننا سندخل قصراً منيفاً ثم تقدمنا على أطراف أقدامنا وخطونا بحذر وترقّب إلى أن دخلنا البيت فاذا به غرفة مستطيلة نقرتْ في داخل الجبل تبلغ مساحتها سبعة أمتار طولاً وستة أمتار عرضاً وثلاثة أمتار ارتفاعاً . ووجدنا أيضاً غرفتين صغيرتين نقرت إحداهما على الجانب الأيمن والأخرى على الجانب الأيسر .

ولسنا من الاوّلين الذين قاموا بزيارة هذه الصخور ، فقد شاهدها قبلنا الكثير من الرحّالة الغربيين ، وهم قد وصفوها لنا وصفاً دقيقاً ولكنهم مع الأسف لم يذكروا عنها في كتبهم إلا ماهو تعبيرٌ عن معتقداتهم الخاصة وميولهم الشخصية . والواقع أننا لم نكن في حاجة الى أن نلتفت إلى أقوالهم لولا مُعارضتها لما ورد في القرآن الكريم .

ومن أهمّ ذلك دعواهم بأن المغارات التي نحتت في الصخور بالحجر كانت قبوراً وليست بيوتاً . ويستندون في رأيهم هذا إلى ضيق المكان وذلك أنّ كل مغارة بالحجر — صغيرة كانت أو كبيرة ، وسواءٌ أكانت

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

متكوّنة من طابقين أو ثلاثة طوابق ـ لها مدخلٌ واحد فقط ، أي باب بدون نوافذ وبدون وسائل للراحة في داخل البناء ، أو خارجه . ولذلك استبعدوا إمكانية المعيشة أو الحياة في هذه المغارات الضيقة بدون نوافذ . ويُضاف إلى ذلك ماعثر عليه الرحّالة من عظامٍ بشريةٍ منتشرة في بعض الكهوف ، ثم زعم جماعةٌ منهم مثل دوتى (Doughty) ورينان (Renan) وبرجر (Berger) وهوبر (Huber) ويوتنج (Euting) وريد (Reed) وغيرهم أنّ العبارات والشعارات الباقية إلى يومنا هذا في هذه المنازل تدلّ على أنها مقابر ، لا سيما تمثال طائرٍ هائل نحت على قمة القوصرة ، ظنّه الغربيون البومة أو الهامة التي تخرج من جانب قبور القتلى تزقو وتصيح مخاطبة أهل الميت تدعوهم للثأر قائلةً : اسقوني اسقوني ! وزعم بعضهم أنها نَسْرٌ ، وقالوا جميعاً إنها كناية عن الموت .

ثم أكثروا من إيراد الحجج لإثبات هذا الرأي ، وقد أسفنا أن نجد الأستاذ أحمد فخري يجاريهم في هذا الرأي حيث يقول : في منطقة مدائن صالح والعلا توجد مقابر كثيرة حُليت واجهاتها بالرسوم ، وكثيراً مانرى رسم النسر على واجهاتها فوق المدخل أحياناً ، وعلى جانبيها أحياناً أخرى .. ومثله الأديب البارع سليمان نصر الله الذي خلط الحقيقة بالخطأ وحيّر نفسه وحيّر القراء حيث نشر مقاله عن « العلا » في مجلة « قافلة الزيت » الغرّاء وجاء بمباحث كثيرة تدلّ على أنّ البيوت المنحوتة بمدائن صالح هي مقابر ومدافن ، كما أنّ النصوص المنقوشة على واجهات هذه البيوت بالخطّ النبطي الشائع في أوائل القرون الميلادية هي شواهد القبور[1] .

(١) قافلة الزيت (ارامكو ، الظهران) ، يونيو ١٩٧١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد يسّر لنا الله برهاناً قاطعاً ورداً مانعاً حينما سافرنا مع جماعة من طلاب جامعة الملك عبد العزيز بجدّة في الأسبوع الأخير من شهر ذي القعدة الماضي إلى مدائن صالح . وإنما التوفيق من عند الله ، ولم يعثر على هذه الحقيقة أحد قبلنا . وكان عثورنا عليها بطريق الصدفة (ورب صدفة خير من ميعاد) والفضل يرجع إلى جامعة الملك عبد العزيز التي قدّمت لنا فرصة ذهبية لزيارة منطقة الحِجْر .

وكان أول ما تفحصناه هو أبواب المغارات حيث لاحظنا أن غلق كل الأبواب كان من الداخل وليس من الخارج (اللّهمّ إلا «الديوان» و« بيت الصانع » كما يطلق عليه) . وهذا دليل ناهض على أن هذه المغارات قد كانت مساكن يسكنها الأحياء من الثموديين وليست قبوراً، وإلاّ لما كانت وسيلة اغلاقها من الداخل .

وذلك أن الناحت قد حفر في داخل كل باب أربع نُقَر مربعة الشكل (بوصتان في بوصتين) اثنتان منها في كتف الباب(jamb)نحو اليمين والنقرتان الأخريان نحو الشمال . وقد لاحظنا أنّ النقرتين في كلّ جانب ليستا عموديتين فالنقرة العليا مائلة إلى خارج المغارة (أي هي متّصلة بإطار الباب) وأمّا النقرة السُفلى فمائلة إلى الداخل،وما ذلك إلاّ لإحكام إغلاق الباب من الداخل . ونعتقد أن كلّ باب كان مصنوعاً من لوح واحد من الخشب وينتهي كلّ لوح في أعلاه ببروزيّن نحو الخارج يدخلان في النقرتين العاويتين . وأما (النقرتان السفليتان) عند منتصف الباب فقد كانتا تستعملان لوضع قطعة من الخشب على شكل عارضة يقال لها السدّ أو الضبّ (أي مغلاق) وسمك هذه القطعة الخشبية بوصتان وطولها طبعاً أكبر من عرض اللّوح بثلاث أو أربع بوصات . وبهذه كان يغلق الباب من الداخل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولذلك وتوكيداً لكلامنا لم يجد الأستاذ محمدعبدالحميد مرداد أثراً لأي قطعة من الخشب أو الحديد على أبواب هذه المغارات، الأمر الذي حيره وأدهشه كما قال هو نفسه (١).

سبق أن بيّنا أن كل باب من هذه الأبواب قد صنع من لوح واحد من الخشب وسبب هذا الاعتقاد أن لوحات الأبواب لو كانت صنعت من الحجر أو الحديد لأصبحت ثقيلة جداً، وبالتالي يصعب إغلاق هذه الأبواب. يضاف الى ذلك سهولة كسر الحجر في هذه الحالة، ولهذا لم ينحتوا مغاليق الأبواب من الحجر، ولم نشاهد قطعات المغاليق الحجرية منتشرة عند الأبواب أو حولها.

وأما استناد الغربيين إلى ضيق المكان فلا يمكن الاعتماد عليه لان الضغط الجوي (atmospheric pressure) بمنطقة الحجر هو عالٍ جداً مما يساعد على دخول الهواء الى كلّ زاوية من زوايا هذه المغارات بسرعةٍ وبسهولة. وحينما دخلنا إلى هذه المغارات لم نشعر بضيق في التنفّس في أيّ مكانٍ منها. وحينما صعدنا فوق الجبل ووثبنا بسرعةٍ من صخرة إلى صخرة أخرى لم نشعر كذلك بأي تعب أو إرهاق مطلقاً. وثمّة دليلٌ آخر على كثافة الهواء بالحجر هو أنّ أمواج الصوت تجري هناك بسرعة أكبر من السرعة الاعتياديّة. فحينما كنّا نتكلّم أو ندعو زميلاً لنا من بعيد لم نكن نحتاج إلى رفع أصواتنا كما لم نشعر بضيق التنفّس هناك أبداً. ويُطلق علماء الجغرافيا على مثل هذه المناطق: منطقة الضغط الجويّ العالي [subtropical highs] (٢).

وأمّا العظام البشريّة التي وُجدت في هذه البيوت فهي قليلة. ومع ذلك فإننا لم نلاحظ وجود أيّ أثرٍ للجماجم أو عظام الحوض. ونحن فحصنا العظام

(١) مرداد: مدائن صالح، أروع البلدان. القاهرة ١٩٧٠ م.

(٢) McGraw-Hill' Elements of Geography، ص ٧١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التي وجدناها فحصاً دقيقاً . . وقد ساعدنا بعض الطلاب مثل أنيس شودري على ذلك . فوجدنا العظام كلها جافة وخالية وخفيفة وليست نتينة . وكان أكثرها سالماً كاملاً ولم نجد فيها ثقوباً للديدان أو النمل . وشخصنا من بين هذه العظام زند ذراع بشري [وهو ulna] . وقد أثار اهتمامنا خلو العظام من أي أثر للحم أو العضل أو الجلد ، ولم نرشيئاً من ذلك في أجواف العظام أو فجواتها ، فكأنها نظفت بالماء والفرشاة ، فأقمنا على طلب الكيعاس والسلاميات أي عظام البراجم والأنامل (phalanges) فبحثنا وفتشنا تفتيشاً دقيقاً في كل الزوايا فلم ننجح ولم نجد واحدة منها ، وهذا ما جعلنا نعتقد أن أكثر هذه العظام قد جلبت من الخارج وطرحت في هذه المغارات في فترة حديثة . وربما كان ناقل هذه العظام من المدافن أو المقابر قد نسي أن يلتقط السلاميات معها أيضاً . وكما نظن أن العظام قد غسلتها الأمطار هناك كما أصابتها عوامل التعرية . ولو كانت العظام قد وضعت في المغارات منذ البدء لأمكننا أن نعثر على بعض السلاميات في داخل هذه المغارات .

وعلى هذا فإننا نستبعد الاحتمال أو الافتراض بأن الجثث كانت في المغارة منذ البداية وأن السباع قد أكلتها ومضغت عظامها ولحستها . وذلك لأننا لم نشاهد في هذه العظام أثر المضغ أو اللحس . بل كانت أكثرها سالمة كاملة ، اي لم تمضغها أو تكسرها الكلاب أو السباع ولم تلحسها أيضاً . إذ لو لحستها الكلاب أو السباع لبقيت آثار اللحم والعضل في جوف أو فجوة من هذه العظام السالمة ولأن لسان السبع لا يقدر على جذب بقايا اللحم من الجوف أو الفجوة دون تكسيرها بأنيابه .

وأما رأي دوتي (Doughty) بأن هذه العظام كانت لجثث محنطة فرأي غير مقبول هو الآخر ، لأن دوتى كان قد استند في رأيه هذا إلى عثوره على قطعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قماش قديم وشقّة من إهاب الإبل وشيء من البخور ظنه مادة التحنيط ، وكان دوتي قد أرسل هذه المادة إلى ليونج (Liveing) لإجراء التحليل الكيميائي عليها .

إن قطعة القماش البالية التي عثر عليها دوتي هي شبيهة بقماش الكتان المصري كما جاء في تقرير ليونج نفسه ، ومن المعروف أن قماش الكتان يستعمل للثياب حتى الآن . وأما قطعة الجلد المربوطة بها الشقة الجلدية فهي من جلد الإبل ولعلها كانت (حقيبة) تستعمل للبخور ، ومن المعروف أن جلد الإبل لا يستعمل في التحنيط .

وأما ما عثر عليه دوتي من البخور فإنه ليس من مواد التحنيط وذلك لأن المواد المستعملة في التحنيط هي مواد دهنية لا يذوب معظمها بالماء ، ولكنها تذوب في مُذيبات أخرى كالبنزين . وقد أثبتت التجارب التي أجراها «ليونج» على هذه المواد المكتشفة ، أن ٢٧ بالمائة منها قابل للذوبان في الماء ، وأما ما أذابه البنزين منها فهو اثنان بالمائة (١) الأمر الذي يدل على أنها ليست من المواد الدهنية التي تستعمل في التحنيط . يضاف إلى ذلك أن مواد التحنيط لا تشتمل على ألياف نباتية مثل هذه . وأما النموذج الذي أرسله دوتي إلى ليونج فنعتقد أنه عودٌ أو لُبان . ولا نعلم كيف نسي دوتي أن التحنيط لم يكن معروفاً عند العرب وعند الساميين (سيما اليهود والنصارى) في تلك العصور ، لأنهم كانوا يدفعون أمواتهم إلى التراب ويدفنونهم تحت الأرض منذ عهد الجاهلية الأولى .

يظهر من ذلك أن العظام الموجودة في المغارات بمدائن صالح هي قليلة جداً وغير محنطة أصلا . والظن الغالب عندنا أن هذه العظام هي عظام للرجال الذين «أَخَذَتْهم الصَّيْحَة» . وان هذه المغارات لو كانت مقابر للأموات لكانت قد ملئت بأكوام من العظام المتراكمة المزدحمة .

---

(١) دوتي : Travels in Arabia ، لندن ١٩٦٤ م ١ : ١٣٩ وما بعدها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما المقابر والمدافن لأموات هذه المدائن فإننا قد وجدناها ليست في داخل هذه المغارات وإنما آثارها توجد في السهل الغربي المجاور لهذه الصخور حيث تقع في مساحة تقدر بثلاثة كيلومترات مربعة وهي متسعة بين جبل الأثالث وبين بيت الصانع . ومن بين تلك القبور المندثرة وجدنا أثر قبر طويل (نحو ثلاثة أمتار في الطول) فتعجب أكثر الطلاب الذين كانوا معنا فقلنا لهم : ولعله كان لفارس شجاع دفن هناك مع أسلحته والتي منها الرمح والسيف وأمثاله كثيرة بين أيدينا ،مثلاقبر (نو گزه) (١) أو قبر « فليبوس » (٢) فرس الاسكندر المقدوني

وأما تمثال الطائر المنحوت على معظم المداخل فإنه ليس تمثالاً للبومة أوالنسر، ولو فرضنا أن تمثال الطائر هذا يشير فعلا الى البومة أو الهامة لكان هذا يعني أن جميع الناس الذين دفنوا هناك قد قتلوا غدراً ولا بد من الثأر لهم ، وهذا أمر غير معقول . اننا نعتقد أن ذلك الطائر هو قَقْنُس (phoenix) ويقال له سمندل أو سبندل أيضاً (٣) وإن القفنس هو طائر خرافي . ومن الروايات التي تروى عن هذا الطائر أنه إذا انقطع نسله أو هرم ألقى بنفسه في النار ليعود له شبابه ، فعلى هذا هو رمز إلى الخلود والبقاء نحته الثموديون على مداخل بيوتهم وزعموا أنهم يعيشون آمنين فرحين دائمين خالدين فيها . وقد ورد في العهد القديم : « ومثل السمندل (وبالعبرية : وكالحول) أكثر أياماً » (٤) .

وأما ما يعتقد بأنه رسم للحيّة ، والموجود على كل من جانبي رأس الانسان في القوصرة (pediment) فوق بعض المداخل فإنه ليس رسماً للحيّة لأننا

---

(١) Imperial Gazetteer of India ، كورة « لاهور » (بامدادالاشارية
(٢) أيضاً ، كورة « كجرات » (بامداد الاشارية) .
(٣) تاج العروس بذيل مادة سمندل
(٤) العهد القديم ، أيوب ، ٢٩ : ١٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

تأملناه فوجدناه قرناً من قرون الشعر أي ضفائر مرسلة . ومن المعروف ان النعمان بن المنذر سمي بذي القرنين لضفيرتين كانتا في قرني رأسه كان يرسلها، كما أن القرون مقبولة عند بني سُقير إلى الآن (١). وعلى ذلك يذكرنا هذا الرسم بقناع الغرغونة (Gorgon) (٢) وكانت الغرغونة إحدى أخوات ثلاث في الميتولوجيا اليونانية ، مكسوات الرؤوس بالأفاعي بدلا من الشعر ، وكان كل من ينظر إليهن يتحول إلى حجر . فقد يُرْسَم رأسها على واجهات القصور للحفظ من أضرار العين ، ولأجل ذلك كان هذا الرأس لا يرسم على القبور أبداً .

وعلى كل من جانبي القوصرة قد نحتت زهرية . وزعم بعض المستشرقين أنها (urn) أي الجرة التي تستعمل لحفظ رماد الموتى . ولكن كيف ذلك ؟ فإن احراق جثث الموتى لم يكن معروفاً عند العرب وأيضاً عند الساميين .

وأما الحفر والرفوف المنقورة في داخل أكثر البيوت فهي ليست لدفن الأموات لأن بعضها أقصر من طول الإنسان (مثلا كانت متراً ونصفاً) فكيف تكون هذه مقبرة ؟ وأما الرفوف فكلها غير عميقة لأن عمقها لايزيد شبراً ولا يتسع لجثة ميت أبداً . وقد اعترف بهذا «دوتي» أيضاً وقال : إنها ليست بمدافن للجثث . ولذلك فإننا نعتقد أنها خزائن الأموال والملابس والأشياء التي مثلها وما الحفر هذه إلا مخازن للأموال والثمار والبخور .

ويبدو لنا أن سكان هذه البيوت كانوا من الأشراف أو الملوك ، وأما أهل الحرفة وعامة الناس فكانوا يسكنون في بيوت في السهل أو في الوادي الممتد حول هذه الجبال وهي مغمورة ومطمورة تحت الرمال .

---

(١) دكسن The Arab of the Desert ، لندن ١٩٤٩ م .

(٢) هيستنجز : دائرة المعارف للأديان والأخلاق ، بذيل مادة Gorgon

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما متراس البناء فله طلعة غريبة لامثيل لها في أيّ فنّ من فنون العمارة في العالم، قدنقر على شكل خمس درجات إلى اليمين ومثلها إلى اليسار . فقد زعم ريد (Reed) (١) المستشرق أنه عبارة عن معراج لتيسير أن ترقى نفس الميت إلى السماء ، فغايته أن هذه المغارات مقابر لا مساكن . وهو رأي مردود لأن اليهود والساميين في تلك العصور كانوا يعتقدون أن نفس الميت تغوص وتهبط تحت الأرض في ظلام يقال له شئول (שׁאול) ولاتتجه نحو السماء (٢). وإن عقيدة صعود النفس إلى السماء حديثة العصر (أي قد ظهرت في القرن الرابع بعد الميلاد) (٣) ونحن نعتقد أن هذا المتراس عبارة عن الراية واللواء ، أو عن إكليل الملك القرنثي .

وقد بذلنا جهدنا أن نحصل على صور لهذه النصوص المنقوشة فوق مداخل بعض البيوت بالحجر ولم ننجح، إلى أن زارتنا الدكتورة روت آلتيم شتيل Stiehl من ألمانيا، ولها شغف خاص بمدائن صالح وآثارها منذ خمس سنوات، وكان عندها كما أخبرتنا كثير من صور النصوص من مدائن صالح. فناقشت الدكتورة معنا موضوع المغارات بالحجر هل هي قبور أو بيوت . فأثبتنا لها بحجج دامغة أن هذه المغارات قصور وليست قبوراً . فقالت أخيراً : فماذا ترى في النصوص التي قرئت مراراً وحللت وفسرت وترجمت إلى اللغة الفرنسية ؟ فقلنا لها : أما النصوص فصور منها غير موجودة بين أيدينا فكيف نقول شيئاً عنها ؟ بل إننا نظن أن الغربيين قد أخطؤوا في القراءة خاصة في كلمة « قصر » فقرؤها « قبراً » لأن الفرق بين شكل الصاد وشكل الباء في الخط الثمودي كان ضئيلاً جداً وقد من الله علينا بمعرفة قراءة هذه النصوص القديمة (الحميرية أو النجدية أو الحيجرية أو السبئية

(١) ونشت وريد Ancient Records ، تورنتو ١٩٧٠

(٢) هيستنجز ، بذيل مادة Disposal of Dead (Jews)

(٣) أيضاً ، مادة Ascension (Soul)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أو الآرامية أو العبرية) ـ كما وفقنا بالعثور على زلات المستشرقين مثل ساوياك (Savignac) وبيستن (Beeston) وجام (Jamme) فوعدتنا الدكتورة أن ترسل إلينا بعض الصور من النصوص في مدى أسبوعين . ثم ذهبت وهي مقتنعة برأينا ، والآن قد مضى عليها الشهر الخامس ولم يصلنا شيء من صور النصوص إلا ترجمة بعض النصوص بالفرنسية .

وفي غضون ذلك وقعنا على كتاب حديث الطبع . فوجدنا فيه مصادفة صورة نص من نصوص مدائن صالح فتأملنا فيها وتعمقنا في استيعابها فاذا بها كلمة « قصر » دون أي ريب وشك .

فيتضح لنا من العرض السابق أن المغارات المنحوتة في الصخور بالحجر إنما هي بيوت وقصور وليست بقبور ، فسبحان الذي أنزل في محكم التنزيل :

﴿ ولقد كذّب أصحاب الحجر المرسلين ۞ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ۞ و كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ۞ فأخذتهم الصيحة مصبحين ۞ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ۞ ﴾ صدق الله العظيم

المصادر

مضافة إلى المراجع المشار إليها في المقال :

ـ ابن هشام : السيرة ، تحقيق وستنفلد ، الجزء الأول ص ٨٩٨ ـ ٨٩٩

ـ الهمداني : صفة جزيرة العرب ، تحقيق موللر ص ١٣١ .

ـ الطبري : تاريخ الطبري ، تحقيق دي جويا ، الجزء الأول : ص ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ، ٣٥٢ .

ـ المسعودي : مروج الذهب ، طبعة باريس . الجزء الثالث ص ٨٤ ـ ٩٠

ـ الشهرستاني : الملل والنحل . القاهرة ١٩٥٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

- ياقوت الحموي: معجم البلدان : نشره وستنفلد .
- ابن منظور : لسان العرب : طبعة بيروت.
- الزبيدي : تاج العروس : طبعة القاهرة .
- جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام . بغداد ١٩٥٠ .
- سليمان موسى : آثار الأردن : ١٩٦٥ .
- أحمد فخري : بين آثار العالم العربي . القاهرة ١٩٥٨ .
- عبد القدوس الأنصاري . بين التاريخ والآثار : ١٣٨٩ / ١٩٦٩.
- م . عبد الحميد مرداد : مدائن صالح . أروع البلدان . القاهرة ١٩٧٠ .
- برنامج رحلة مدائن صالح (١٣٩٠/١١/٢٥ — ١٣٩٠/١١/٢٩) أو (١٩٧١/١/٢٣ — ١٩٧١/١/٢٧) نشرته جامعة الملك عبد العزيز بجدة.
- ش . م . دوتي — رحلات في الصحراء العربية . لندن : ١٩٦٤ .
- ج « يوتنج : كتاب اليوم (تاج بوك) الجزء الثاني: ص ٢١٥ ومابعدها .
- شبرنجر : جغرافية بلاد العرب القديمة .
- ج . ه . دالمان : معجم آرامي . جوتنجن ١٩٣٨ .
- دائرة المعارف البريطانية . طبعة ١٩٦١ .
- دائرة المعارف الأمريكية . طبعة ١٩٦٩.
- دائرة معارف الدين والأخلاق . طبعة هيستنجز .
- دائرة معارف الإسلام . طبعة ليدن . وبخاصة المقالات التالية : هَجَر — الأنباط — صالح — ثمود .
- ديكسون : عرب الصحراء — لندن ١٩٤٩ .
- ونّت وريد : مكتوبات قديمة . من شمالي الجزيرة العربية . تورنتو ١٩٧٠
- إ . إلهي : الحِجْر ، . . الخ . . في المنهل ، جدة ، صفر وربيع الأول ١٣٩١

لاهور — رانا م ـ ن ـ إحسان إلهي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشكل آ FIGURE A

مدائن صالح MADÂ , IN ṢALIḤ.

واجهة الهيكل A FACADE WITH DOUBLE TEMPLUM IN ANTIS

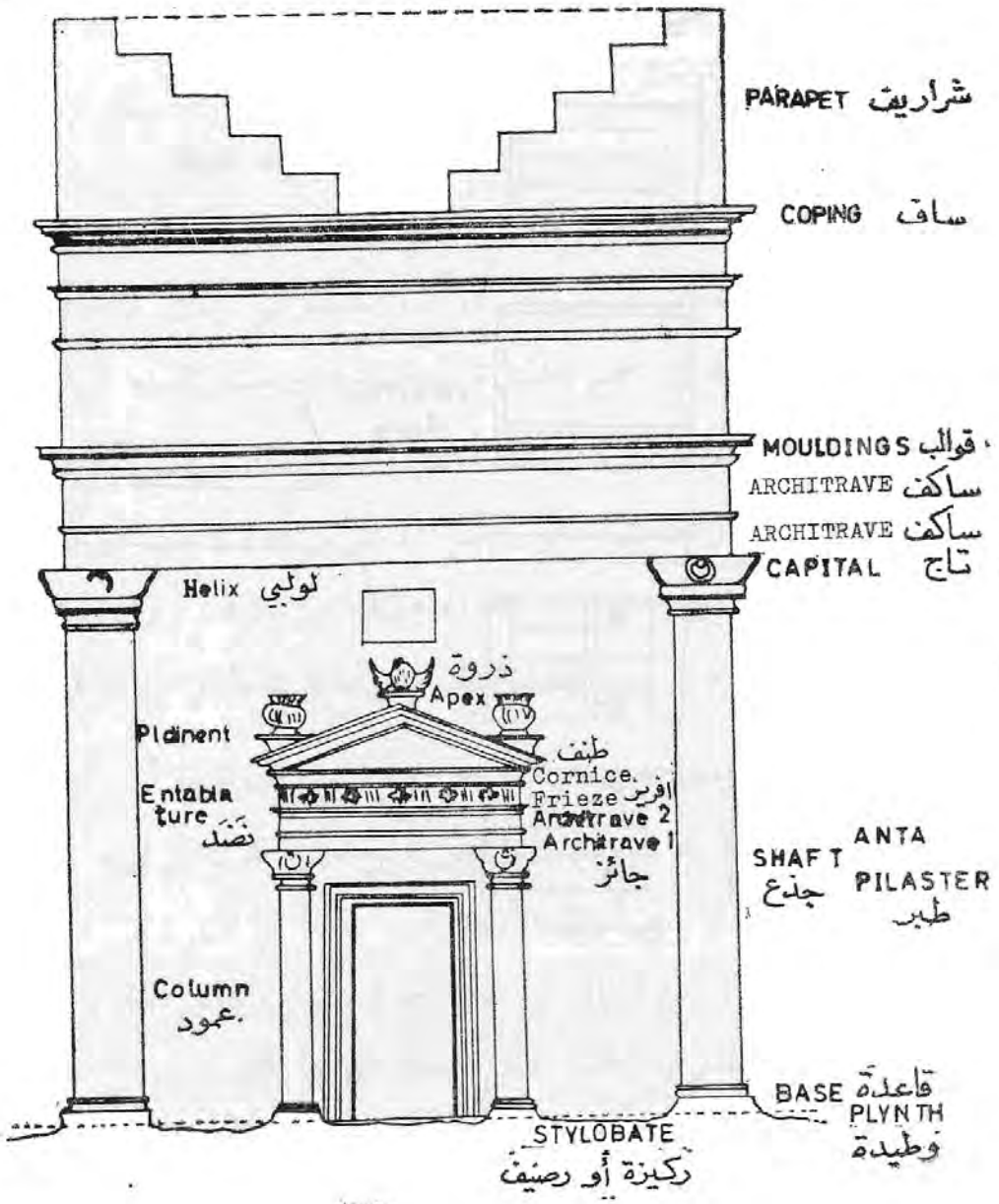

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

FIGURE B الشكل ب

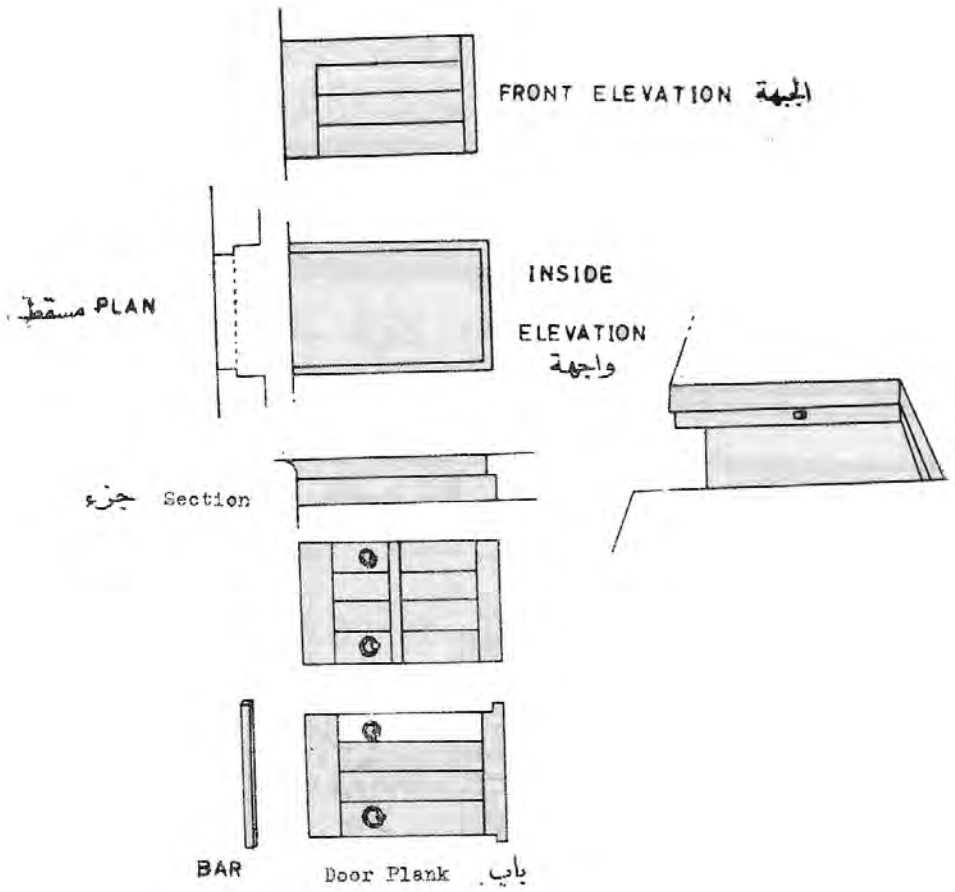

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net